رحلة بحث

أنتظر من دون جدوى.. اكتسى الأفق بلون رماديّ كئيب.. الموج لا يزال فى صراعه المعتاد و صخبه.. تحط فوقه النوارس البيضاء، تختطف الأسماك و تعاود؛ لترتفع فى السماء، المطر ينهمر من دون توقف.. كان لا بد لي من الوصول في موعدي؛ لأتم مقابلة عملي؛ الذي إذا قدر الله لي، سيكون هو عملي الجديد!

على الرغم من قرب المكان من محل سكني فإننى وجدت طريق الكورنيش سيكون الأصعب، فاخترت الشوارع الخلفية.. شارعان.. وها هو ذا رقم البناية.. الدور الأول، باب زجاجىّ شفّاف ينم ما خلفه عن مكان أنيق، اللون الأزرق السماوىّ مع الأبيض الكريميّ، ومقاعد بنية يندمج معها الزرع الأخضر فى أناقة عالية.. جو يوحى بالهدوء و الرقيّ.

شاب فى أوائل العشرينيات على جانبيه فتاتان فى العمر نفسه تقريبًا.. ملأتُ استمارة التقدّم، واخترت التخصّص،

وقيمة المرتّب والحالة الاجتماعية، تلك التي تؤرقني دائمًا، وتجعلنى أتساءل:

ماذا يهمّ رب العمل إن كانت المتقدّمة آنسة أم مطلقة أم أرملة، وكذلك انتمائها الدينيّ.. لا بدّ أن تكون المؤهلات والخبرات فقط هي ما تعنيه!

فتحت الفتاة الباب ودعتني للدخول.. باب من خشب الأرز الذي أعشقه، وُزعت عليه نقوش بشكل إبداعىّ أنيق.

ذلك الضخم الجثة، الكثّ اللحية خلف مكتب كبير يليق بضخامته. سرت فى جسدى رهبة الامتحان، لكنني تشجعت وتماسكت، بعد تفحصه استمارة التوظيف المختصّة بي، وكذلك السيرة الذاتية المرفقة به.. رفع عينيه وكأنّه يتفحصني أنا أيضًا؟

سرت فيَّ رعشة تيار بارد، وانتفض جسدي كأنّ ألف دبوس انغرس فى جسدي المرهق، كدت أصرخ فى وجهه لكننى تمالكت نفسى وحدثتها:

ألا ليت الرجال يعلمون أن حواس المرأة تفوق ألف ردار...!

قطع عامل البوفية الصمت بسؤالي ماذا أحب أن أشرب؟ رفضت بلطف، ولكنّ ذاك الضخم أصر، وقرر فى الوقت نفسه:

كوبان من الشاي!

ثم أخذ يثرثر بكلام كثير، لم أفهم مغزاه غالبًا، ولم أمتلك الإجابة عن معظم أسئلته، فاستعنت بقدرتي على المراوغة، وأعطيته إجابات عائمة. لا سيما أنه ترك السيرة الذاتية كلها، ليسألني:

كيف توفى زوجك؟ ومتى؟ مبديًّا شيئًا من الحزن الكاذب.

بعض أمور الحياة تجبرنا على احتمال بعضهم ومراوغتهم؛ لأننا قد لا نملك قرار الفرار!

وضع العامل الشاي أمامي.. بابتسامة باهتة لم تغادرني طوال مدة وجودى.. تحت إلحاحه الشديد بأنني لن أخرج؛ حتى أنتهي من شرب كوب الشاي.. رحت أتجرعه على دفعات متتالية بسرعة؛ ليباغتني بطلقات أسئلته غير المتوقعة والتي تنم عن خبرة صائد الفرائس المحترف وحنكته.

حاولت الظهور بمظهر الواثقة...

حاول إقناعى بأن الرجل الذى ماتت عنه زوجته، ويرفض الزواج هو حقًا تعيس؛ وهو يخالف الفطرة ونواميس الكون، وحتى المرأة التى يموت عنها زوجها، لا بدّ أن تتزوج، لكنّها المسؤولية والأبناء وخشية القيل والقال فى مجتمع لا يرضى عن أيّ فعل ولا يقدر أيّ ظروف للإنسان، مستأنفًا كلامه متثاقفًا:

نحيا في مجتمعات معاقة ومعيقة في كثير من الأحيان.

وباغتنى بأشهر مقولة سمعتها:

«لو تكلم الأموات فى القبور لدعوا الأحياء إلى الزواج!»

كنت أنظر إلى هذا الرجل الضخم فى غيظ كظيم.. ليقاطعنا رجل لا يخالفه كثيرًا فى الشكل؛ حتّى يبدو أنهما أخوة، بوصفه طوق نجاة، ظهر فجأة؛ وأخذ يسألني عن جامعتي، وعن سنة تخرّجي وخبراتي السابقة، وطلب منّي الحديث عن نفسي خمس دقائق، وضعت كوب الشاي عن يدى وأنا أقول لهما:

سررت بمعرفة حضرتكما، ووقفت استعدادًا لإنهاء هذه المهزلة.

انصرفت مسرعة غير عابئة سوى بإمساك مقبض الباب؛ لأفتحه... شعور بالراحة لا يضاهيه شعور... صوته من خلفى يؤكد أنهم سيعاودون الاتصال بي، الحقّ أنّه لم يبهجني، ولم أنتظر اتصالهما أصلًا؟ ..وكأن شلالًا باردًا ينسكب على جسدى و فوق رأسى.. تصطك أسنانى .. أواجه الهواء .. أشعر بالبرودة.

استطالت البيوت.. اتسعت المسافات.. يدفعني الهواء للخلف.. أعود أدراجي، أعود لأقاوم، وأكمل الطريق.. يتملكّني شعور بالإحباط ، يقابلني مكاني المفضل.. أدخل مسرعة مثل هاربٍ يبحث عن الأمان.. أسرع لطاولتى المواجهة للبحر.. أجدها خالية.. أجلس محتميّة من البرد والمطر المنهمر خلف النافذة الزجاجية، أراقب قطرات المطر الصغيرة؛ وهي تصطدم بالزجاج فى عناد، فيصدمها ويسقطها عنه فى كبرياء.. وعلى الرغم من ذلك؛ فلا القطرات تتوقف عن الانهمار ولا الزجاج يتوقف عن صدّها! أطلب فنجانًا من القهوة، أفتح الجريدة وأبحث عن عمل جديد.. يعلو صوت ميادة:

كان يا ما كان.. كان يا ما كان ..

كان يا ما كان الحب مالى بيتنا و مدفينا الحنان..

زرنا الزمان سرق منا فرحتنا.. الراحة والأمان

حبيبي كان هنا مالي الدنيا عليُّه.. بالحب والهنا

حبيبي يا انا يا أغلى من عينيُّه.. نسيت من أنا

أنا الحب اللي كان.. اللي نسيته قوام

من قبل الآوان ..

و اللّه زمان يا هوى زمان ..

obeikandl.com